الباب الرابع

غرائب وعجائب المنقول

١- فصل

ومن غرائب المنقول وعجائبه:

[١٥٣] عن الأمير بدر الدين أبى المحاسن يوسف المهمندار المعروف بمهمندار العرب أنه قال : حكى الأمير محمد شجاع الدين الشيرازى متولى القاهرة فى أيام الكامل سنة ثلاثين وستمائة ، قال : بتنا عند رجل بالصعيد فأكرمنا ، وكان الرجل شديد السمرة وهو شيخ كبير ، فحضر له أولاد بيض الوجوه حسان الأشكال .

فقلنا له : هؤلاء أولادك ؟ قال : نعم ، ثم قال : كأنكم أنكرتم علىَّ بياضهم وسوادى ؟ قلنا : نعم ، فقال : هؤلاء كانت أمهم إفرنجية أخذتها أيام الملك الناصر صلاح الدين وأنا شاب ، فقلنا : وكيف أخذتها ؟ قال : حديثى فيها عجيب وأمرى غريب ، فقلنا : أتحفنا به ، فقال : زرعت كتانا فى هذه البلدة وقلعته ونفضته ، فصرفت عليه خمسمائة دينار ، ثم لم يبلغ الثمن أكثر من ذلك فحملته للقاهرة ، فلم يصل أكثر من ذلك فأشير على بحمله إلى الشام فحملته ، فلم يزد على تلك القيمة شيئاً فوصلت به إلى عكا ، فبعت بعضه لأجل والبعض تركته ، واكتريت حانوتا لأبيع على مهل إلى أن تنقضى المدة ، فبينما أنا أبيع إذ مرت بى امرأة إفرنجية ونساء الإفرنج يمشون فى الأسواق بلا نقاب ، فأتت تشترى منى كتانا فرأيت من جمالها ما أبهرنى فبعتها وسامحتها ، ثم انصرفت وأتت إلىَّ بعد أيام فبعتها وسامحتها أكثر من المرة الأولى فتكررت إلىَّ وعلمت أنى أحبها .

فقلت للعجوز التى كانت معها : إننى قد تلفت بحبها وأريد منك الحيلة ، فقالت لها العجوز ذلك ، فقالت تروح أرواحنا الثلاثة أنا وأنت

وهو فأعادت على الجواب ، فقلت لها : أما أنا فقد سمحت بروحى فى حبها واتفق الحال على أن أدفع لها خمسين دينارا فوزنتها وسلمتها للعجوز، فقالت : نحن الليلة عندك قال : فمضيت وجهزت ما قدرت عليه من مأكول ومشروب ، وشمع وحلوى فجاءت الإفرنجية فأكلنا وشربنا ، وحن الليل ولم يبق غير النوم ، فقلت فى نفسى : أما تستحى من الله وأنت غريب تعصى الله مع نصرانية ؛ اللهم إنى أشهدك أنى قد عففت عنها فى هذه الليلة حياء منك وخوفا من عقابك ، ثم نمت إلى الصبح .

فقامت من السحر وهى غضبانة ، ومضت ومضيت إلى حانوتى فجلست فيه فإذا هى قد عبرت علىَّ هى والعجوز وهى مغضبة وكأنها القمر فهلكت وقلت فى نفسى : ومن هو أنت حتى تترك هذه البارعة فى حسنها ، ثم لحقت العجوز وقلت لها ارجعى فقالت وحق المسيح ما أرجع لك إلا بمائة دينار ،فقلت : نعم بسم الله فمضيت فوزنت مائة دينار.

فلما حضرت الجارية عندى لحقتنى الفكرة الأولى وعففت عنها وتركتها حياء من الله تعالى ، ثم مضت ومضيت إلى موضعى ثم عبرت على بعد ذلك وقالت وحق المسيح ما عدت تفرح بى عندك إلا بخمسمائة دينار أو تموت كمدا ، فارتعت لذلك وعزمت على أنى أصرف ثمن الكتان جميعه . فبينما أنا كذلك والمنادى ينادى : معاشر المسلمين إن الهدنة التى كانت بيننا وبينكم قد انقضت ، وقد أمهلنا من هنا من المسلمين إلى جمعة فانقطعت عنى ، وأخذت فى تحصيل ثمن الكتان الذى لى والمصالحة على ما بقى منه وأخذت معى بضاعة حسنة وخرجت من عكا وفى قلبى من الإفرنجية ما فيه .

فوصلت إلى دمشق وبعت البضاعة بأوفى ثمن بسبب فراغ الهدنة ومَنّ الله علىَّ بكسب وافر وأخذت أتجر فى الجوارى لعل يذهب ما بقلبى من الإفرنجية ، فمضيت ثلاث سنين وجرى للملك الناصر[1] ما جرى من وقعة حطين[2] ، وأخذ جميع الملوك وفتح بلاد الساحل بإذن الله تعالى فطُلِبَ منى جارية للملك الناصر فأحضرت له جارية حسناء فاشتراها منى بمائة دينار فأوصلوا لى تسعين دينارا وبقيت العشرة دنانير عنده ، فلم يجدوها فى خزانة الملك فى ذلك اليوم لأنه أنفق جميع الأموال .

فلما حضرت الغنيمة جاءوا للملك فشاوروه على ذلك ، فقال : امضوا به إلى الخيمة التى فيها السبى من نساء الإفرنج فخيروه فى واحدة منهن يأخذها بالعشرة دنانير التى بقيت له فأتيت الخيمة فعرفت غريمتى ، فقلت : أعطونى هذه الجارية فأخذتها ومضيت إلى خيمتى وخلوت بها ، وقلت لها : أتعرفينى ؟ قالت : لا ، فقلت لها : أنا صاحبك التاجر الذى جرى لى معك ما جرى وأخذت منى الذهب وقلت ما عدت ترانى عندك إلا بخمسمائة دينار وقد أخذتك ملكا بعشر دنانير،فقالت:مد يدك أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، فأسلمت وحسن إسلامها .

---

(١) الملك الناصر هو : صلاح الدين الأيوبى ، يوسف بن أيوب : القائد العظيم قاهر الصليبيين ، ومجدد مجد المسلمين . من أصل كردى ، اختاره العاضد للوزارة وقيادة الجيش ، ولقبه بالملك الصالح ، وقد انتصر على الصليبيين فى موقعة حطين الشهيرة، ت[٥٨٩هـ = ١١٩٣م] . انظر : وفيات الأعيان(١٣٩/٧) ، الكامل لابن أثير (٣٧/١٢) .

(٢) حطين : قرية فى فلسطين غربى بحيرة طبرية . انتصر صلاح الدين على الصليبيين فيها سنة [٥٨٣هـ = ١١٨٧م] واستعاد للمسلمين بيت المقدس .

فقلت : والله لا وصلت إليها إلا بأمر القاضى .فتوجهت إلى ابن شداد[1] وحكيت له ما جرى ، فتعجب وعقد لى عليها وباتت تلك الليلة عندى فحملت منى. ثم رحل العسكر وأتينا دمشق فبعد مدة يسيرة أرسل الملك يطلب الأسارى والسبايا باتفاق وقع بين الملوك فردوا من كان أسيرا من الرجال والنساء ولم يبق إلا التى عندى فطلبت منى فحضرت وقد تغير لونى فأحضرتها بين يدى الملك الناصر والرسول فقلت : هذه أسلمت وصارت امرأتى .

فقال الملك الناصر بحضرة الرسول : أترجعين إلى بلادك أو إلى زوجك فقد فككنا أسرك وأسر غيرك ؟ فقالت : يا مولانا السلطان أنا قد أسلمت وحملت وها بطنى كما ترونه وليس لى رغبة فى الرجوع إلى بلادى وما رغبتى إلا فى الإسلام وزوجى ، فقال لها الرسول : أيما أحب إليك هذا المسلم أو زوجك الإفرنجى ؟ فأعادت عبارتها الأولى ، فقال الرسول : لمن معه من الإفرنج اسمعوا كلامها ثم قال لى الرسول : خذ زوجتك وتوجه فوليت بها فطلبنى ثانيا وقال : إن أمها أرسلت معى كسوة، وقالت أن ابنتى أسيرة وأشتهى أن توصل لها هذه الكسوة فتسلمت الكسوة، ومضيت إلى الدار ففتحت القماش فإذا هو قماشها بعينه قد صيرته لها أمها ووجدت من داخله الصرتين الذهب الخمسين دينار والمائة دينار كما هى بربطتى لم يتغيرا ، وهؤلاء الأولاد منها وهى التى صنعت لكم هذا الطعام ، والله أعلم .

---

(١) يوسف بهاء الدين ، ابن شداد : القاضى ، المؤرخ . قاضى صلاح الدين وأرخ له فى كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"

[١٥٤] **ويحكى** : أن بعض الملوك أرسل رجلا من بطانته إلى بعض الجهات ليعرف خبر عاملها ويطالعه بأخبار الرعية . فلما وصل الرجل فطن له العامل فأرسل إليه بمال وتحف ثم قال : عرفت ما جئت له، وأنا أرغب إليك فى كتاب تكتبه إلى الملك تذكر فيه أنى حسن السيرة وسالك طريق العدل ، فإن أنت فعلت ذلك فلك منى ما تشتهى رغبتك إليه من الخير والعطاء ، وإن أبيت ذلك أمرت الشرطيين أن ينهوا إلى من أمرك فى الملأ ما يوجب قتلك إما حدا و إما سياسة ، فاقتلك بمحضر من قاضى البلد ووجوه الناس ، فتذهب كأمس الماضى .

فلما لم يجد الرجل بدا من موافقته ولم يكن ليخون مرسله كتب بحضرته كتابا إلى الملك : " أما بعد ؛ أعز الله الملك وأكرمه فإنى قدمت إلى مدينة كذا وكذا فوجدت العامل فلانا آخذا بالحزم عاملا بالعزم ، قد ساوى بين رعيته وعدل بينهم فى أقضيته وأرضى بعضهم ، بعضا وجعل طاعته عليهم فرضا ، وأنزلهم منه منزلة الأولاد وأذهب ما بينهم من الأحقاد، وأراحهم من السعى فى الدنيا ، وفرغهم للعمل فى الآخر أغنى القاصد وأرضى الوارد، فجميع أهل عمله داعون للملك يودون النظر إلى وجهه الكريم والسلام" .

فلما وصل الكتاب منه إلى الملك فكر فيه وقال لوزيره : إن فلانا لم يكن عندى بمتهم، فإن كتابه هذا يدل على ظلم العامل فالتمس لى رجلا يصلح لعمله فإنى قد عزلته ، فقال الوزير : أصلح الله الملك وكيف ذلك ؟ قال : لأن قوله : "آخذا بالحزم عاملا بالعزم" ؛ أى أنه خائف منى لما اعتمده فى الولاية . وأما قوله : "ساوى بين رعيته وعدل بينهم فى أقضيته"؛

فمعناه أنه لم يخص أحدا بظلمه بل الجميع سواء . وقوله : "وأرضى بعضهم بعضا" ؛ أى ذهبت أحقادهم لأن الشدائد تذهب الأحقاد . وقوله: "أنزلهم منه منزلة الأولاد" معناه ؛ أخذ أموالهم ورأى أنها له أخذا من قوله ﷺ : «أنت ومالك لأبيك»[1] . وقوله : "وأراحهم من السعى فى الدنيا" معناه أنه أخذ أموالهم ولم يترك لهم ما يسعون به ولا ما به يتجرون. وقوله : "فرغهم للعمل فى الأخرى" معناه ؛ أنهم لزموا المساجد والعبادة لفقرهم . وقوله : "أغنى القاصد وأرضى الوارد" ؛ فإنه يعنى نفسه أى أنه أعطاه مالا ليكتب إلى بذلك . وأما قوله : "فجميع أهل عمله داعون لنا" معناه ؛ أن يبصرنا الله بأمرهم ونطلع على ما هم فيه . وقوله : "يودون النظر لوجهنا" ؛ أى يشكون إلينا ما لقوه منه ويستغيثون بنا . ثم إن الملك طلب العامل وأحضره إلى بابه وأنصف الناس منه ورد عليهم ما كان العامل ظلمهم فيه واقتص منه فيما وجب عليه فيه القصاص وقابله على فعله ، والله أعلم .

---

(١) الحديث : صححه الألبانى فى الجامع الصحيح برقم٠(١٤٨٦) .